الفصل الأول

ملحوظات عامة على النيل ومصر وأصل سكانها

يا خليلـــــيّ ذكـــــراني بســـــعدي وأســـعداني بـــذركر ســـكان ربعـــي
فـــــأتني أن أرى الـــــديار بعيـــــني فلعلـــــي أرى الـــــديار بســـــمعي

إعلم أن مصر واد غريب الآثار عجيب الأخبار يحده شمالًا البحر الأبيض المتوسط وجنوباً بلاد السودان وشرقاً جبال العرب وغرباً جبال برقه أوليبيا اللذان يكونان متقاربين جداً من أسوان وإسنا حتى يكادا أن يتماسا ثم ينفرجان قليلًا قليلًا وكلما إمتدا إلى الشمال إنفرجا عن بعضهما إلى أن يحاذيا القاهرة فيتجه أحدهما إلى الشمال الشرقي حتى ينتهي بهضبات الشام وبجبال لبنان ويتجه الآخر إلى الشمال الغربي حتى ينتهي بجبال المغرب والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض فيروي جميع مصر ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

وهو يتكون من فرعين عظيمين أحدهما البحر الأبيض وهو أطولهما فيأتي من الأمطار الدورية المنهمرة على الجبال الشامخة المحيطة بوسط أفريقيا من الجنوب والشرق فتنتج مياهه على هيئة سيول متدفقة تجتمع مع بعضها في بطن الوادي وتصير بحيرات متسلسلة متواصلة يعلو بعضها بعضاً ثم يتجه إلى الشمال وتمده الأنهار بمياهها من اليمين والشمال ومتى جاوز هذا الإقليم مرّ بوسط تلك الفدافد والبيداء وإخترق كثيراً من الأحراش والغابات وقطع البطحاء والمستنقعات ثم يخرج منها و يميل قليلًا إلى الشرق كأنه يقصد البحر الأحمر فتصده الجبال والصخور ويستقيم ثانياً حتى يجتمع بالفرع الثاني وهو البحر الأزرق عند قرية أم درمان بالقرب من الخرطوم ثم يتجه إلى الشمال فيلتقي مع نهر تكازا أو أتبرا بالقرب من قرية الدامر وهذان النهران يأتيان من بلاد الحبشة فيصير بهما نهراً عظيماً متلاطماً بالأمواج وإلى هنا يسمى بالنيل الأعلى ثم ينعطف إلى الغرب وينصدم في سهول البادية الكبرى ويميل إلى الجنوب ثم إلى الشمال ويعرج في سيره تارة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب ويمر بجملة جنادل نعرف بالشلالات وآخرها شلال أسوان وإلى هنا يسمى بالنيل الأوسط ثم يمر بأرض مصر ويتفرع عند القناطر الخيرية إلى فرعين عظمين أحدهما يتجه إلى الشمال الشرقي ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من

ثغر دمياط ويسمى فرع دمياط والثاني يتجه إلى الشمال الغربي ويصب في البحر الأبيض المتوسط أيضاً بالقرب من ثغر رشيد ويسمى فرع رشيد. وكان له فيما سلف سبعة أفرع وسبعة مصبات وهي

أولها الفرع البوبسطي ويعرف الآن بترعة أبومنجا وكان يصب في البحر بالقرب من قرية الطينة أو الفرما ومكانه ظاهر إلى الآن.

ثانيها الفرع الطانيتيكي ويعرف الآن ببحر مويس.

ثالثها الفرع المنديسي ويعرف الآن ببحر أشمون الرمان ويصب في بحيرة المنزلة.

رابعها الفرع الفاطميتي وهو المعروف الآن بفرع دمياط.

خامسها فرع السبنيني ويعرف الآن بترعة مليج.

سادسها الفرع البلبيتيني وكان جزء من فرع رشيد يخرج من الفرع الكانوي الآتي ذكره بالقرب من بلدة الرحمانية بمديرية البحيرة ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

سابعها الفرع الكانوبي ويسمى أيضاً الهرقليوتيكي أو النقراتيكي وهو عبارة عن فرع رشيد ومبدؤه رأس مثلث الدلتا أو روضة البحرين فكان يجري حتى محاذي بلدة الرحمانية ويتفرع إلى فرعين أحدهما الفرع البلبيتيني وقد مر ذكره والثاني يتجه إلى الشمال الغربي حتى يدنو من جبال لبيا ويصب في البحر الأبيض المتوسط وبعض مجراه يعرف الآن باسم ترعة المحمودية وأما باقيه فقد ردم وصار أرضاً زراعية.

ولهذا النيل المبارك في كل سنة منظران متنوّعان جدّا.

أحدهم زمن التحريق فتراه في ذلك الوقت وقد إنحصر بين ساحليه وقل جريانه وتغير ماؤه وتعرج في سيره ورسب طميه وراق من الأكدار وظهرت به جزائر قحلاء شوهّا حرارة الشمس مراراً بجمرتها أما الصعيد وما أدراك ما الصعيد فينضب ماؤه ويصير أرضاً جرزاً وصعيداً أقفر وتنش الترع وتشتدّ به حرارة القيظ ويجف العود الأخضر وتعصف الرياح الغربية الهابة من الصحراء وتعرف بريح السموم أو الخماسين فيقتم الغبار ويعلق التراب بورق الأشجار ووجوه المارة ويبقى الأمر على ذلك والناس تشرب من الآبار والسواقي حتى يسعفها النيل بفيضه العميم أو تهب ريح الشمال فتطفي لطي ذلك الجحيم.

ثانيهما زمن الزيادة أو الفيض ويبتدئ بتغير لون الماء إلى الخضرة فتصير غروية كابية اللون مائلة إلى الملوحة مغثية مضرة بالصحة بعدما كانت بالأمس صافية لذيذة سائغة للشاربين وسبب ذلك أن مياه الفيض تطرد أمامها ماء المستنقعات الراكدة المتخلفة من العام الماضي في جنوب بلاد السودان بعدما أذابت فيها الأعشاب والغثاء وبعض عظام الحيوانات فتؤثر على الصحة وتحدث ألماً شديداً في المثانة ولا يمكن الإنسان أن يتخلص من هذا الضرر إلا بغليها أو ترشيحها ثم يأخذ النيل بعد ثلاثة أو أربعة أيام في الزيادة والحمرة وكلما زاد ماؤه زادت حمرته حتى يتخيل للرائي أنه بحر من دم كدر مركز بالطمي فعند ذلك يحمد ترويقه وفي ذلك الوقت يكون منظره أبهج المناظر وأشرح للخواطر ثم تهجم جيوشه على السواحل لا يمنعها عنها مانع ولا يدفعها دافع فتسحلها سحلًا وتزحف جنوده الميمونة الطلعة على تلك الأراضي القحلة فتلقحها بالخيرات والبركات وتبيد منها الوحشة والحزن فما تسمع إلا دوي وقع الحروف وهدير القناطر وعجيج الأمواج وتصفيق المياه وخرير السدود وتغريد الطيور مبشرة بقدوم الهناء وهمس حركات الأسماك الفضية اللون وصرير الحشرات والزواحف وكأن الحياة دبت ثانية في كل ذي روح فتنشط الناس وتدرج السوائم وتدب الدواب وتأخذ الحكومة في التدبير لصد صولنه ورد جماحه وإدخاله تحت عادل قانونها فيدوم على ذلك برهة وكأن أيامه من حسنها أعراس ثم يرجع القهقرى رويداً رويداً ويغادر الأرض بعدما ترك عليها من فيض إحسانه طبقة لطيفة من الطمي المخصب لها ويلازم ساحليه فتلبس أرض مصر حلتها السندسية ذات النفحة المسكية مطرزة بالأزهار ومزررة بالأزرار وغير ذلك مما هو معلوم لدينا ومنبوت أمر ما لينا ومما نسب للمرحوم رفاعه بك.

كلفت بوصل النيل مصر فأنتجت ... من يانع الأثمار كل ربيح
لو واصل النيل الصحاري أنجبت ... ولكنها ألفت وصال الريح

وبالجملة والتفصيل لولا هذا النيل وماؤه الفياض لكانت أرض مصر سجناً عميقاً لا تصلح للزرع ولا للسكن وعلى ذلك إتفق علماء الآثار الباحثون عن أحوال مصر وتواريخها أن هذا الوادي كان في مبدأ أمره خليجاً يغمره ماء البحر الملح فتسلطت عليه عوامل النيل ورفعت من قدره ما إنخفض وطمته بطميهما السنوي شيأ فشيأ حتى صار أرضاً زراعية طيبة مباركة وقال هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير أن مصر هدية من النيل عندما أخبرته الكهنة أنه في مدة إستيلاء الملك منا على منصة الحكم بديار مصر كانت أمواج البحر الملح تضرب في صخور

الجبل الشرقي والغربي حيث أهرام الجيزة الآن وأن باقي الوادي كان مستنقعاً وأراضي مستعجرة مضرة بالصحة.

وقد ظهر الآن بالحساب أن النيل يزيد في عرض أرض الدلتا أو روضة البحرين في كل سنة متراً واحداً حتى بلغ الآن ثلاثة وعشرين ألف كيلو متر مربع حدث من الطمي الذي جلب النيل معه حبه حبة من أقاصي بلاد السودان ووسط أفريقيا فينتج من ذلك أنه لابد أن يكون مكث سبعمائة وأربعين قرناً أو أربعة وسبعين ألف سنة حتى بلغ هذا المقدار.

ولما كانت هذه المدة بعيدة جداً عن التصور العقلي قال بعض المؤرخين أن مياه النيل كانت فيما سلف أغزر طمياً وأكدر منها الآن وأن أرض مصر تم تكوينها في مدة أقل بكثير من المدة المذكورة وأن ما أخبرت به كهنة مصر هيرودوت المؤرخ صحيح لا مراء فيه ولا فرية لأنهم أعلم بأخبار أرضهم ممن سواهم.

وقال بعضهم أن أرض الدلتا ثم تكوينها وصارت أرضاً صالحة للزراعة قبل حكم منا بمدة طويلة ولا عبرة بما قالته الكهنة لذلك المؤرخ لأن ذلك دعوى من غير دليل ومن أين أتى لهم أنها كانت لا تصلح للزرع والسكن قبل إستيلاء هذا الملك وعلى كل حال كان الواجب عليهم أن يقولوا له أن النيل يزيد كل سنة في أرض مصر والناس سكنتها بالتدريج.

أما أصل المصريين فقد وقع فيه إختلاف كبيراً أيضاً فزعم قدماء المؤرخين من الأفرنج أن سكان هذا الوادي أتوا إليه من أفريقيا من شاطئ النيل الأوسط أي من بلاد أتيوبيا فزحفوا إليه شيأ فشيأ تابعين مجرى هذا النهر إلى أن وصلوا البحر الأبيض المتوسط ثم إنتشروا في جميع بقاعه وجزم أهل أتيوبيا أن مصر هي أحد نزلاتهم ومستعمراتهم كما أن أرضها من أرضهم نقلها النيل بشدة جريانه وفيضه السنوي وسكانها قبيلة منهم وإحتجتوا بشدة المشابهة الكائنة بين العوائد والأخلاق والقوانين التي كانت عند كلتيهما وقالوا أنهم تعلموا الكتابة منا كما علمناهم كيفيه تخنيط الأموات التي كانت مستعملة عندنا وأن كهنتهم تعلمت العلوم وحفظ الأسرار من كهنتنا حتى أن ملابس ملوكهم ورنك تيجانهم هي عين ملابس ملوكنا وبالجملة فهم أولادنا فضلًا عن أنهم تلاميذنا ثم نابذونا في الحرف والصنائع وخاريونا ونادوا علينا بما تعلوه منا فهم كما قال الشاعر:

أعلمتـــــه الرمايـــــة كـــــل يـــــوم فلمـــــا إشـــــتد ســـــاعده رمـــــاني
وكـــــم علمتـــــه نظـــــم القـــــوافي فلمـــــا قـــــال قافيـــــة هجـــــاني

ومازالت هذه الروايات متداولة بين المؤرخين حتى ظهر الآن بطلان هذه الدعوى وعكس الموضوع لأنه ظهر للباحثين أن في مادة العائلة الثانية عشرة هاجر قوم من مصر إلى بلاد أثيوبيا وعمروها فصارت تابعة لمصر وأن التمدن المصري صعد من الشمال إلى الجنوب بدل أن ينحدر مع النيل من الجنوب إلى الشمال سيما وقد نصت التوراة أن مصرايم بن حام سكن بأولاده مصر ومن تأمل في التماثيل القديمة المصرية المحفوظة بدار التحف علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القوقازي القاطن بآسيا وأوربا لا من جنس الزنوج وأن لتركيب لغتهم مشابهة قوية بتركيب لغة أهل آسيا وأن كثيراً من أصل لغتهم مشتق من اللغة العبرانية الإيرامية كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة في كلتا اللغتين أصلهما واحد وخلاصة القول أن أصل المصريين من الجنس السامي أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس وربما وجدوا به طائفة من الزنوج فرّت أمامهم صوب الجنوب ومن البديهي أن النيل كان في تلك الحقبة العصرية يمد ويجزر ويغير مجراه كل سنة بدون أن يروي شيأ من أرضه.

وكان بعض الوجه العرى مغموراً بمياه البحر الملح يتخلله جزائر تنبت البردي والأقحوان والقصب الفارسي فضرورة المعيشة أحوجت هؤلاء النازلين إلى ضبط ميامه بحفر الترع والخلجان وإقامة الجسور وحرث الأرض وزرعها وبتمادي الأزمان صاروا قبائل وعشائر كثيرة لكل واحد منها رئيس ربما مكثوا على ذلك نحو الثلاثة آلاف سنة أو أكثر فتكونت منهم إيالات أو ممالك صغيرة لكل واحدة منها قوانين وديانة ومعبودات خاصة ثم إنحازت تلك الممالك إلى بعضها فتكون منها مملكتان كبيرتان إحداهما بالصعيد والأخرى بالبحيرة ولما قامت الدولة الفرعونية الأولى وضمتهما إلى بعضهما بقيت تلك الإيالات الصغيرة ممتازة عن بعضها عبارة عن مديريات أو أقسام لكل واحدة مدن وقرى وأراض وجملة مراكز خاصة بها أما عاصمة كل قسم فكانت مركزاً للعبادة الخاصة به وللأحكام الملكية والحربية التي يباشرها الحاكم الوارث له المعتمد من لدن الملك وكان أهالي كل قسم تدفع من نفس نتاج الأرض خراجاً سنوياً إلى الملك كما أنهم كانوا خاضعين لمزاولة أشغال المصالح العامة بدون أجر ولا مقابل أما عدد المديريات أو الأقسام فكان يختلف بإختلاف الأحكام والأزمان فكان ستة وثلاثين أيام ديودور الصقلي المؤرخ وكان أيام غيره أربعة وأربعين نصفها بالصعيد ونصفها بالحيرة والله أعلم.